وحدد مجال كل أصل من هذه الاصول وقد ابتدع فى (رسالته) نظاما للقياس العقلى الذى ينبغى الرجوع إليه فى التشريع من غير اخلال بما للكتاب والسنة من الشأن المقدم ريث الاستنباط من هذه الاصول ووضع القواعد لاستعمالها بعد ما كان جزافا.

على أنا نجد فى كتاب الفهرست فى ترجمة (محمد بن الحسن) ذكر كتاب له يسمى (كتاب أصول الفقه)

ويقول الموفق المكى فى كتابه (مناقب الامام الأعظم) نقلا عن طلحة بن محمد بن جعفر: أن أبا يوسف اول من وضع الكتب فى «أصول الفقه» على مذهب أبى حنيفة ج ٢ ص ٢٤٥

وينقل ذلك طاش كبرى زاده فى كتابه «مفتاح السعادة» ج٢ ص١٠٢

ولم يرد كتاب فى هذا العلم فيما أورده صاحب «الفهرست» لابى يوسف من الكتب واذا صح أن لابى يوسف أو لمحمد كتابا فى أصول الفقه فهو فيما يظهر كتاب لنصرة ما كان يأخذ به أبو حنيفة ويعيبه أهل الحديث من الاستحسان

وقد يؤيد ذلك، أن صاحب «الفهرست» ذكر فى أسماء كتب أبى يوسف. كتاب الجوامع ألفه ليحيى ابن خالد يحتوى على أربعين كتابا، ذكر فيه اختلاف الناس والرأى المأخوذ به ولم يكن فى طبيعة مذهب أهل الرأى الذين كان من مهمهم أن يجمعوا المسائل ويستكثروا منها، النزوع الى تقييد الاستنباط بقواعد لا تتركه متسعا رحبا

على أن القول بأن أبا يوسف هو أول من تكلم فى (أصول الفقه) على مذهب أبى حنيفة لا يعارض القول بأن الشافعى هو الذى وضع (أصول الفقه) علما ذا قواعد عامة يرجع اليها كل مستنبط لحكم شرعى

وقد لا يكون بعيدا عن غرض «الشافعى» فى وضع «أصول الفقه»: أن يقرب الشقة بين أهل الرأى وأهل الحديث ويمهد للوحدة التى دعا اليها الاسلام

مكتبة النهضة المصرية

١٥ شارع المدابغ أمام جريدة الاهرام

تليفون نمرة ٥١٣٩٤

لصاحبها حسن محمد

أول مكتبة افرنجية يملكها مصرى

تبيع بسعر الخارج

كتب الطب والجامعة المصرية والمدارس العليا والثانوية

تبيع المكتبة طبعة جديدة متقنة من رواية عودة الروح للاستاذ توفيق الحكيم وثمنها عشرة قروش

ويوجد أيضاً كتاب جهاد الأمم فى سبيل الدستور للاستاذ محمد شوكت التونى المحامى وثمنه ١٠ عشرة قروش

صفى الدين الحلى

— ٣ —

(تتمة)

كانت مصر إذ رحل اليها الشاعر فى عهد زاهر مثمر من أكثر نواحى الحياة، فهبط اليها كما يهبط الطائر الصادى على الروض الدانى اليانع: ينهل من موارده فى شوق ويتنقل على دوحاته فى طرب، ثم ينثنى عنه وقد ارتوى الى وطنه شاديا مترنما!

فقد أصبحت بعد ان ثل المغول عرش بنى العباس وأسدلوا على بغداد الستار، مركز الثقافة الاسلامية الأكبر وموئلها الحصين: تنهض فيها جامعة الازهر والمدارس الأخرى حولها بأعباء الرسالة العظمى للعلم والأدب، وتشترك سلاطينها بأيد عاملة نشيطة فى تأييد هذه الحركة وتغذية روحها بعوامل القوة: بما تحدثه من المدارس وما تغدقه فى كرم على العلماء والادباء من هبات وصلات

وكان عصر السلطان الناصر بن قلاوون من خير عهود دولة السلاطين الأولى: إذ كان السلطان نفسه — كما يقول السير وليم موير — «مثقفاً ثقافة عالية، درس علوم الفقه والقانون ونال شهادة فيها فكان يحب العلم والعلماء ويشاركهم فى كل أمر فيفيضون فيه»، وكثيرا ما يكون الملوك المثقفون نعمة على رسل الثقافة لما يملكون من حسن التقدير لأعمالهم، وصدق الشعور بحلاوة ثمراتهم، وقد روى عنه أنه أقطع أبا الفداء المؤرخ الشهير ولاية حماة تقديرا لمكانه وجزاء لما قدمه اليه من معونة فى بعض الحروب. وفى عهده كانت مصر تنعم بشىء من راحة الظافر بعد أن شلت حركات المغول وأنقذت الشرق العربى من بين براثنهم المسمومة، وبعد أن طاردت حملة الصليب المستكلبين فى هدم الاسلام والشرق، وقذفت بهم فى قوة الى البحر! ولكنها مع ذلك لم تكن تغفو عن حراسة هذا الملك وقطع أذناب العدو كلما امتدت اليه، وهو ملك شاسع مترام يمتد ما بين الفرات والحجاز وآسيا الصغرى وجنوب النوبة، ولما كانت إذ ذاك لا تزال طريق التجارة والرحلة بين أوربا والشرق قبل أن يكشف طريق رأس الرجاء الصالح، وعرفت مصر كيف تستغل هذا المورد الثرى أحسن استغلال، وكانت تجبى اليها ثمرات تلك «العاصمة الكبرى»، فقد حازت من المجد المالى ما يمكنها من مواصلة السير فى طريق مجدها العلمى والحربى.

لذلك لا نعجب أن نرى القاهرة حينذاك تموج بوفود رجال العلم والأدب فتحسن وفادتهم ، وأن نسمع صفي الدين وقد أقبل إليها فانتظم زمنا فى حاشية الملك الناصر يصـــوغ آيات المدح لمصر ومليكهـــا ، ويعود إلى وطنه فيلهج بأجمـــل الذكريات لما لقى فيها من روعة الكرم وحسن الضيافة . وقد اتصـــل أثناء أقامته فى مصر بحلقاتها الأدبية التى كان يمثل زعامتهـــا الكتابية (علاء الدين بن الأثير) رئيس ديوان الانشـــاء ، وزعامتها الشعرية « جمال الدين بن نباتة » الأديب الشهير ؛ وتوثقت بينهم جميعا روابط الصداقة والاخلاص ، فـــلم يفتأ بعد رحيله يتراسل معهم فى مساجلات أدبية ممتعة تعبر عن عواطف الشوق ويعترف فى احداها بزعامة ابن نباتة لجميع الشعراء .

والآن نستعرض إحدى قصائده التى تجمع بعض هذه الأمور ، وقد قالها يوم احتفال مصر بيوم الخليج وابتدأها بوصف الربيع فى مصر :

خلع الربيع على غصون البان ... حللا فواضلها على الكثبان
وتتوجت هام النصون وضرجت ... خد الرياض شـــقائق النعمان
وتنوعت بسط الرياض فزهرها ... متباين الأشكال والألوان
والظل يسرق فى الخمائل خطوه ... والغصن يخطر خطرة النشوان
وكأنما الاغصان سوق رواقص ... قد قيدت بـــلاسل الريحان

واستمر هكذا فى أوصافه الجميلة التى يعبر بها عما أودعته طبيعة مصر الفاتنة فى نفسه حتى قال :

إنى وقد صفت المياه وزخرفت ... جنات مصر وأشرق الهرمان
واخضر وانيها وحدق زهره ... والنيل فيـــه ككوثر بجنان
وبه الجوارى المنشآت كأنها ... أعلام يـــد أو فروع قنان
نهضت بأجنحة القلوع كأنها ... عند المـــسير بهم بالطيران
والماء يسرع فى التدفق كلما ... عجلت عليه يد النسيم الوانى

وأخذ بعد ذلك يصف السلطان بالقوة والفصاحة والسيادة على جميع الملوك ، وليس الملوك فى الحقيقة إلا مظاهر للأمم من أكثر الوجوه ، فاذا كانوا أقوياء أو كرماء فما ذلك إلا فيض أنعمهم ومنحة رعاياهم ، وإذن فكل مدح للملك إنما يتجه الى الأمة التى أكسبته أسباب المدح ووهبته مايتيه به من أثواب المجد . ونود أن نشير هنا الى أن مصر لم تكن تنظر الى سلاطينها الذين كانوا فى الأصل مماليـــك إلا بعين التجلة ؛ لأنها كانت إذ ذاك تفهم معنى الوطنية كما يقرره الاسلام ، دينها الذى تعتز به ، وهو دين يمقراطى حر يأمر أهله ألا يأنفوا من الحاكم المسلم العادل ولو كان عبداً حبشياً . وكذلك لم يكن هؤلاء السلاطين فى نظر مصر إلا جنداً مسلمين تربوا فى أرضها ودافعوا طويلا عن مجدها ثم ارتقوا باستيلائهم على شؤونها الحربية الى عرش الملك ، فرضيت بهم وعهدت اليهم بتمثيل قوتها فى السياسة والعلم والحرب ، فمثلوها أحسن تمثيل ، ثم لما فرغ دورهم أرخت عليهـــم الدول وبقيت مصر هى مصر الخالدة .

ومما قاله صفي الدين فى أحدهم وهو الناصر المذكور :

لا عيب فى نعماه إلا أنهـا ... يسلو الغريب بها عن الأوطان
شاهدته فشهدت لقمان الحجا ... ونظرت كسرى العدل فى الايوان
وشهدت منه فصاحة وسماحة ... أعدى بفيضهما يدى ولسانى
ملك اذا اكتحل الملوك بنوره ... خروا لهيبته إلى الأذقان

وقال :

أبقى قلاوون الفخار لولده ... إرثا وفازوا بالثنا مكاسبا
قوم إذا سئموا الصوافن صيروا ... للمجد اخطار الأمور مراكبا
عشقوا الحروب تيمنا بلقا العدا ... فكأنهم حسبوا العداة سبائبا
وكأنما ظنوا السيوف سوالفا ... واللدن قدا والقسى حواجبا
يا أيها الملك العزيز ومن له ... شرف يجر على النجوم ذوائبا
أصلحت بين المسلمين بهمـــة ... تذر الاجانب بالوداد أقاربا
وحرست ماملكت من رجيم مارد ... بعزائم إن صلن كن قواضبا

* * *

كان لصفي الدين قدرة فائقة فى رسم المناظر الاخاذة بدقة الفنى وتأثر الشاعر ، وذلك لما وهبه من ميزتين عظيمتين : إحداهما دقة النظر وصدق المشاهدة ، والأخرى قوة الابتكار والتخيل . فقد كان يدرك بالأولى جزئيات الامور ونواحى المناظر التى تخفى على غير الموهوب ، ثم يتولى خياله ما أدركه فيحكم نسجه ويضفى عليه ألوانه ، ويزيد فوقه نقوشه ، فاذا بوصفه قطعة فنية رائعة تثير الاعجاب .

قام الشاعر برحلات عدة كما ذكرنا قبل، فى صحارى العرب والشام ومصر، وانتظم أزمنة طويلة فى حواشى الملوك الذين كان لهم غرام وشغف بالنزه الخلوية فى أودية حماة والحلة ومارذين فكان ذلك داعيا لشدة قربه من الطبيعة ومذيبا حبه لها، ولما كان بفطرته يملك نفسا شاعرة فقد استجاب دعوة الجمال وأخذ يرصد الطيور حائمة فى الجو، والوحوش هائمة فى الصحراء، والحيوان الأليف والسائم ينقش صورها جميعا فى شعره نقش المصور الماهر، وفى ديوانه أمثلة كثيرة لكل هذه الأوصاف.

ومن مظاهر أوصافه الدقيقة أيضا وصفه للخمر ومجالس الندامى، فان الصفى كان رجلا طروبا ممتاعا فتاعلى موارد اللهو والسرور، يشرب من لذائذه الكؤوس الدهاق: يعاقر الخمر ويعشق النساء والرمان ويختال بين الرياض، ويتجول فى الصحراء؛ غير آبه لما حرم من اللذة أو حل، وذلك لأنه اتخذ لنفسه مذهبا خاصا فى فهم أحكام الدين يطاوع هواه كل المطاوعة، وقد عبر عن هذا المذهب بقوله:

فارتكب أجمل الذنوب لنفع ... واعتقد فى ارتكابه التحريما
ثم تب وأسأل الاله تجده ... لذنوب الورى غفورا رحيما!

وتمادى فى هذا المذهب حتى أحل الخمر صراحة فقال:

نهى الله عن شرب المدام لأنها ... محرمة إلا على من له علم
وذاك بقدر الشاربين وعقلهم ... ففى معشر حل وفى معشر حرم
ولو شاء تحريما على كل معشر ... لقال رسول الله لا يغرس الكرم!

ولو صدق هذا المنطق المموه لكان العلم رخصة مؤذنة لأهله أن يرتكبوا كل لذة أثيمة، ولأنه قد مارسها فعلا واغتبق من كؤوسها واصطبح، عرف كيف يتغزل فى محاسنها ويصف آثارها بمهارة تشهد له بالقدرة الفنية. ومما قاله:

سلاف تميت العقل فى حال شربها ... وتنعش منها الروح والجسم والقلبا
عجيبة وسط الدنان ونورها ... يزرق من لألاء غرتها الحجبا
اذا مسها روح المزاج تألمت ... وأزبد منها الثغر وامتلأت رعبا
وأعجب من بكر لها الماء والد ... وترجع أنى رام تقبيلها عضبى
هى الشمس إلا أنها فى شروقها ... اذا مزجت فى كأسها أطلعت شهبا
يعض عليها التائبون بنانهم ... وتندب كل منهم عقله ندبا

وعلى كل فلا يتردد المرء بعد أن يقرأ أوصاف الحلى أن يحكم له بأن مرتبته فى الصف الأول من شعراء الوصف فى الأدب العربى أما الغزل فقد كبا فيه جواده وخانه ذكاؤه إذ العقل لا يغنى وحده فى هذا الميدان، وإنما مرد الامر إلى القلب الخفاق والعاطفة المشبوبة، وشاعرنا لم يكن من فئة المحبين الذين يؤمنون باتصال الوجدان ويظلون فى نجواهم باكين من هول الذكرى وألم الهجر وانما كان رجلا حسيا يعترف حقا باللذائذ المادية ليس غير.

لهذا كان غزله قسمين متباينين، أولهما الغزل النسائى المألوف، والثانى غزل الولدان أو مايسمونه بالغزل المذكر، ونأسف إذ نقول إن النوع الثانى كان أرق وأصفى وأدل على الصدق من الأول، ولكننا لا ندهش كثيرا إذا ذكرنا مبادئه الخلقية التى وصفناها قبل؛ ويلوح لنا ان هذا الانحلال الخلقى لم يكن قاصرا عليه وحده وإنما كان ظاهرة عامة للولاة والأمراء الذين يستقلون فى اطراف المملكة ببعض المناطق: لان وفرة المال وتحقق أسباب النعيم مع قلة الشواغل الادارية، كانت تغريهم بالعكوف على الملاهى والتمادى فى الاباحة. أما غزله الأول ففيه جفاف وتكلف وترى عليه سمات التقليد واضحة ومما قاله فى مذهبه:

خلياتى من فترة النسوان ... وانعشانى بنشطة الغلمان!
ليس يصبو لربة الخال قلبى ... بل يرب الاقراط جن جنانى!

***

تلك هى الاغراض البارزة التى تستحق الدراسة فى شعر صفى الدين، أما الاغراض الاخرى فهى لا تخرج عن السبل التى طرقتها إخوتها، وجملة القول فيها أن الزهد والالغاز ليسا الا مثلين من التقليد والتكلف، لأن الرجل كما عرفنا كان متهتكا مسرفا، وإنما أراد أن يعارض قصائد ابن الفارض وأمثاله من المتصوفة المخلصين، ولأن نوع الالغاز أبعد ما يكون عن معنى الشعر. وهو، وإن أجاد فى الرثاء حقا، وأبدع فى تصوير فجائع الموت! ، نستطيع أن ندرك إجادته فيما درسنا من مدحه، لأن معناهما واحد وإن اختلفا فى مناسبة كل منهما مع الحياة أو الموت. غير أنه أتى فى باب الحكمة بكثير من التجارب الصادقة التى يعززها العقل والواقع وأكثر ما تدور حول الصداقة وآداب الاجتماع، فلم يبق إذن غير المجون وهى ما نستميح القارىء أن يعفينا منه صونا لحياء القلم وحرصا على وقار «الرسالة»

(وبعد) فهذه شخصية كبيرة تجمع بين الوسامة والدمامة، ولكنها فى جملتها جديرة بالخلود، على انها آية بينة تقرر ان الأدب العربى قد ظل بعد موت بغداد يتنسم الحياة قويا ناضرا؟

دار العلوم ... ضياء الريس